جامع بني أمية الكبير.. تاريخ حافل في جميع العهود والحضارات «1»

يعد الجامع الأموي أو المسجد الأموي أو جامع بني أمية الكبير في دمشق، من روائع الفن المعماري الإسلامي، يقع في قلب المدينة القديمة. له تاريخ حافل في جميع العهود والحضارات.

ويعود تاريخ المسجد الأموي في سورية إلى 1200 سنة قبل الميلاد، حيث كان هذا المكان معبداً للإله "حدد الأراني"، إله الخصب والرعد والمطر، وعندما دخل الرومان إلى دمشق أقاموا فيه معبدا للإله جوبيتر، وما زالت أطلاله باقية من منطقة سوق الحريم وحتى منطقة القيمرية. وعندما دخلت روما في المسيحية أقيم في المنطقة الغربية الشمالية من مكان المعبد كنيسة يوحنا المعمدان، ولما دخل المسلمون إلى دمشق، جرى اقتسام موقع الكنيسة إلى قسمين: القسم الشرقي أصبح للمسلمين والقسم الغربي للمسيحين. وعندما تولى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة 86هـ (الموافق ل 705 م) الخلافة أراد أن يبني مسجدا جامعا ليس له مثيل في الشرق، ورضي المسيحيون ببيع النصف العائد لهم مقابل كنيسة حنانيا وحقوق أخرى، وبدأ الوليد بالبناء فاستفاد من ما هو موجود، وحول الموجود إلى شكل إسلامي، وكساه وزينه بالفسيفساء والمنمنمات والنقوش وأفضل ما زينت به المساجد في تاريخ الإسلام.

وفي المسجد الأموي أول مئذنة في الإسلام المسماة مئذنة العروس وله اليوم ثلاث مآذن وأربع أبواب وقبة كبيرة قبة النسر وثلاث قباب في صحنه وأربعة محاريب ومشهد عثمان ومشهد أبوبكر ومشهد الحسين ومشهد عروة ولوحات جدارية ضخمة من الفسيفساء وقاعات ومتحف، في داخلة ضريح النبي يحيى علية السلام وبجواره يرقد البطل صلاح الدين الأيوبي وبالقرب منه الكثير من مقامات وأضرحة رجال ومشاهير الإسلام، وقد صلى فيه أهم المشاهير في تاريخ الإسلام والفاتحين وعدد كبير من الصحابة والسلاطين والخلفاء والملوك والولاة وأكبر علماء المسلمين، وهو أول جامع يدخله أحد باباوات روما عندما زار مدينة دمشق. وكان ذلك عام 2001 م عندما قام بزيارته البابا يوحنا بولس الثاني وللجامع تاريخ حافل في كافة العصور قبل الإسلام وفي العصر الإسلامي.

قيام المسجد

جامع بني أمية في دمشق هو أقدم وأجمل وأكمل آبدة إسلامية ما زالت محافظة على أصولها منذ عصر مُنْشئها الوليد بن عبد الملك الخليفَة المصلح الذي حكم الي96 هـ وخلال حكمه كان منصرفًا إلى الإعمار والإنشاء في البلاد الإسلامية، وكان بناء الجامع في عاصمة دولته دمشق من أكثر الأمور أهمية، ولقد استعان في عمارته بالمعماريين والمزخرفين من أهل الشام، وخصص له الكثير من المال وأمر أن يكون أفضل المباني وأفخمها وكان له ذلك فأصبح جامع دمشق الكبير أهم بناء في الدولة الإسلامية.

أُقيم المسجد الجامع بدمشق بعد فتح بلاد الشام، في الجهة الشرقية الجنوبية من أطلال المعبد الروماني جوبيتر الذي أُنشئ في القرن الأول الميلادي، بناء الجامع الأموي الكبير لقد قام الأمويين ببناء جامع الأموي وجعله جامعا يليق بعاصمة دولتهم الدولة الأموية فقاموا بتوسعة باحاته وتجميله بالنقوش والفسيفساء والزخارف وزين بأفخم وأجمل الفوانيس وغيرها، وكذلك فعلوا في مدن أخرى مثل: المدينة المنورة وحلب والقدس.

باشر ببناء الجامع الأموي الكبير بدمشق، بعد أن اتفق مع أصحاب الكنيسة لإقامة جامع ضخم يليق بعظمة الدولة الإسلامية، ويعتمد على التخطيط الذي وضعه الرسول محمد (عند بنائه لمسجده الأول في المدينة المنورة)، وكان هذا المخطط يقوم على تقسيم المسجد إلى بيت الصلاة وإلى فناء مفتوح. لقد استبقى الوليد الجزء السفلي من جدار القبلة أعاد الجدران الخارجية والأبواب، وأنشأ حرم المسجد مسقوفاً مع القبة والقناطر وصفوف الأعمدة.

أنشأ أروقة تحيط صحن الجامع، وأقام في أركان الجامع الأربعة صومعة ضخمة، ولكن زلزالًا لاحقًا أتى على المنارتين الشماليتين، فاستعيض عنها بمنارة في وسط الجدار الشمالي، وأصبح للمسجد ثلاث منارات اثنتان في طرفي الجدار الجنوبي، وواحدة في منتصف الجدار الشمالي وتسمى مئذنة العروس.

وفي عهد الإمبراطور الروماني تيودوس الأول 379 م – 395 م تحول المعبد مرة ثانية إلى كنيسة باسم كنيسة القديس يوحنا المعمدان الموجود ضريحه داخل الجامع والمعروف أيضا باسم النبي يحيى

تاريخ الجامع

كان في العهد القديم سوقًا، ثم تحول في العهد الروماني إلى معبد أُنشئ في القرن الأول الميلادي. ثم تحول مع الزمن إلى كنيسة.

وعقب سيطرة الرومان على دمشق، كانت المدينة من أهم المدن ومركز هام للحضارة، تحول المعبد إلى اسم معبد جوبيتر الدمشقي. ومن المرجح أن التغييرات عقب هذا التحول لم تكن كثيرة. رغم الكتابات التي تشير إلى أنه تطور بشكل واسع في عهد السلوقيين والرومان. ما تزال بقايا هذا المعبد موجودة حتى الآن إلى الغرب من الجامع الأموي حيث تظهر بقايا الأعمدة الرومانية (الكورنثية) ومقدمة القوس الرئيسية في المعبد.

ي عهد الإمبراطور الروماني تيودوس الأول 379 م – 395 م تحول المعبد إلى كنيسة باسم كنيسة القديس يوحنا المعمدان الموجود ضريحه داخل الجامع والمعروف أيضا باسم النبي يحيى..

وكان معاوية قد أنشأ لنفسه قصر الخضراء المتاخم لجدار الجامع الأثري، وقد أنشأ معاوية في المسجد كذلك مقصورة خاصة به، هي أول مقصورة في تاريخ الإسلام.

وكان المكان وإثر زلزال عنيف أتى على المعبد جوبيتر وبقي الهيكل ناوس الذي يقع في منتصف فناء واسع محاط بجدار مرتفع تخترقه أربعة أبواب من الجهات الأربعة، وكان يحيطها سور آخر معمد بالأعمدة ولقد استعمل المسيحيون من سكان دمشق هذا الهيكل كنيسة، وكانوا يدخلون من الباب ذاته الذي أصبح يدخل منه المسلمون إلى مسجدهم في الشرق.

بناء الجامع الأموي الكبير

قام الأمويين ببناء الجامع الأموي وجعله جامعا يليق بعاصمة دولتهم دمشق، فقاموا بتوسعة باحاته وتجميله بالنقوش والفسيفساء والزخارف والرخام وزين بأفخم وأجمل الفوانيس على الإطلاق وغيرها من النفائس، فكان جامع ومركزا للدولة الإسلامية في أقصى اتساع لها وجمل بناء الجامع وضم في جنباته العديد من كنوز التاريخ في قلب دمشق القديمة.

باشر ببناء الجامع الأموي الكبير بدمشق بعد أن اتفق مع أصحاب الكنيسة – لإقامة جامع ضخم يليق بعظمة الدولة الإسلامية، حيث ان الجامع كان في السابق معبد آرامي ومن بعد ذلك أصبح كنيسة، ويعتمد على التخطيط للمساجد الأولى في الإسلام، وكان هذا المخطط يقوم على تقسيم المسجد إلى بيت الصلاة وإلى فناء مفتوح، لقد استبقى الوليد بن عبد الملك الجزء السفلي من جدار القبلة الأثري وأعاد الجدران الخارجية والأبواب، وأنشأ حرم المسجد مسقوفًا مع القبة ﴿قبة النسر﴾ والقناطر وصفوف الأعمدة الداخلية.

أنشأ أروقة تحيط بصحن الجامع الكبير وأقام في أركان الجامع الأربعة صومعة ضخمة، ولكن زلزالًا لاحقًا أتى على المنارتين الشماليتين للجامع، فاستعيض عنها بمنارة في وسط الجدار الشمالي، وأصبح للمسجد ثلاث منارات اثنتان في طرفي الجدار الجنوبي، وواحدة في منتصف الجدار الشمالي وتسمى مئذنة العروس وهي أقدم مأذنه في الإسلام.

الجامع الأموي في العهد العباسي

في العهد العباسي بنى والي دمشق قبة المال الواقعة في الساحة والتي كانت مخصصة لوضع أموال الولاية وفي عام 1006 م بنيت قبة النوفرة، في الساحة، أمام الجناح المصلب.

وفي عام 1069 م تعرض المسجد إلى حريق اندلع في منزل مجاور وامتد إلى المسجد، ولم يعد بالإمكان السيطرة على النيران وأعيد ترميم وإصلاح ما خرب بسبب الحريق فيما بعد بجهود وأموال كبار وأثرياء المدينة.

الجامع الأموي في العهود الإسلامية اللاحقة

يبدو الجامع مهيمنًا على مدينة دمشق القديمة بهامته المتجلية بقبة النسر، وبمآذنه الثلاثة التي أقيمت في وقت لاحق فوق الصوامع الأموية الشامخة، كما هو الأمر في الصوامع المغربية. في عهد الأمير السلجوقي تتش أمر وزيره بإجراء الإصلاحات على نفقته في قبة النسر وكذلك الدعائم الأربعة والأقواس التي تعلوها، وسقف المسجد والمقصورة.وفي عام 1089 م تم ترميم الجدار الشمالي ومن الناحية الشرقية للجامع.

في عام 1109 م رمم الجدار الشمالي أيضا من الناحية الغربية. وفي عام 1150 م وضعت ساعة كبيرة مميزة عند رواق الباب الشرقي للجامع الأموي. في عام 1179 م أمر صلاح الدين بترميم دعامتين من دعائم القبة الكبرى المسماة قبة النسر، والمئذنة الشمالية والتي هي الأقدم بين المآذن في تاريخ الإسلام ولقد أضيف إليها منارة في عصر صلاح الدين.

في عهد الظاهر بيبرس نظفت أعمدة الحرم ووشيت تيجانها بالذهب وأصلحت صفائح الرخام والفسيفساء، كما جرى تبليط الجدار الشمالي للحرم ليصبح الجامع غاية في الأبهة وقبلة للناظرين لايوازيه أي جامع أو مسجد في العالم الإسلامي. في عصر العثمانيين وفوق الصوامع أنشئت المئذنة الشرقية في عصر الأيوبيين ثم العثمانيين، والمئذنة الغربية أنشأها السلطان قايتباي.

الحلويات وجبة أساسية على موائد السوريين في «رمضان»

لا شك في أن شهر رمضان له طقوسه الخاصة، التي يضفيها على حياة الناس في جميع الدول ذات الطابع الإسلامي. ففي سورية مثلاً، توجد العديد من المأكولات والحلويات الشعبية التي يقتصر إنتاجها على شهر رمضان أو تزدهر فيه، ومنها:

الناعم

ينتظر أهالي الشام حلول شهر رمضان لأكل الناعم. وترتبط هذه الأكلة بالتراث الدمشقي والعادات والتقاليد الشامية الأصيلة، إذ يكاد لا يخلو منزل دمشقي في رمضان من الناعم. ولارتباطه بالشهر، اشتهرت معه عبارة "إذا ما في ناعم... ما في رمضان". ففي رمضان تمتلئ شوارع دمشق بالباعة المتجولين الذين يقومون ببيع الناعم، فهو لا يأتي مختوماً بأكياس، ولا يباع ضمن المحلات الحديثة، وينحصر تصنيعه ضمن الأُسر القديمة التي عَلَّمت أبناءها سر صناعته. ويتم التحضير له قبل بدء رمضان بثلاثة أشهر، والناعم هو عبارة عن خبز مقلي مصنوع بطريقة خاصة، ويوضع عليه الدبس.

ثرود

هي أكلة من تراث أهل بادية الشام، ولا تزال متوفرة في الموائد الرمضانية لأهالي مدينة دير الزور السورية. فعلى الرغم من أن الجيل الجديد في المدينة لا ينتجها، إلا أن أهل الدير حافظوا على تواجد هذا الطبق ضمن فطورهم في رمضان، خاصةً في أيام العزائم وموائد الضيوف. والثرود هو طبق مؤلف من البامية المطبوخة والمقلاة بالسمن العربي، ويوضع تحتها خبز صاج مقلي ومقطع لمربعات كبيرة، بالإضافة إلى قطع من اللحم والبندورة المطبوخة، وتنكهها عدة أنواع من البهارات.

المشطاح

رغم أن أصول المشطاح تعود إلى بلاد فارس، إلا أن السوريين اعتادوا أن يكون المشطاح على طاولة سحورهم في رمضان، ويسميه البعض بـ"خبز رمضان"، وهو خبز له شكل مستطيل طويل، مجوف، يتجاوز طوله 60 سم، مغطى بالسمسم وحبة البركة. وحافظت المخابز والأفران المتواجدة في أحياء دمشق القديمة على إنتاج المشطاح، فهو لا يزال إلى الآن مُتوفراً في الأسواق، وبالأخص أسواق دمشق القديمة في أيام رمضان.

الجزرية

يعود أصول الأكلة إلى سواحل بلاد الشام، وهي من الحلويات التي يشتهر بصناعتها أهالي اللاذقية منذ مئات السنين، إذ يتفاخر أهل الساحل بتقديم هذا الحلو لضيوفهم في رمضان. وعلى عكس المتوقع من اسمها، فالمكون الأساسي فيها هو ليس الجزر، وإنما القرع الأحمر، ويضاف إليه الجزر والسكر والبهارات.

المعروك

يعود أصول الأكلة إلى الشام، واشتهر عالمياً باسم المعروك الشامي، وكلمة "معروك" مشتقة من كلمة "عرك" والتي تعني باللهجة الشامية المحكية "الطحن بشكل جيد". ويعود سبب التسمية، إلى الطريقة اليدوية التي يطحن بها العجين. ورغم توفره على مدار العام في المخابز والأفران، إلا أن بيوت أهل الشام جميعاً تمتلئ به خلال شهر رمضان، إذ يُقدَّم كتحلية بعد الإفطار، فهو شيء من العادات والتقاليد المرتبطة بسكان المدينة. والمعروك هو عجين مخبوز بالتمر أو جوز الهند.

القطايف

يختلف البعض على أصل الأكلة، إلا أن الجميع يرجح أن أصل الأكلة هو عربي. ومهما كان أصل الأكلة إلا أنها في الشام تأخذ طابعاً خاصاً وترتبط بها تاريخياً بشكل معين، وأصل القطايف هي فطيرة مقلية ومحشوة بالجوز، إلا أن أهل الشام أدخلوا بعض التعديلات على الأكلة وقدموها باردة وغير مقلية، وحشوها بالقشدة، واطلقوا عليها اسم "قطايف عصافيري"، ومع الوقت أصبحت القطايف من عادات أهل الشام، فهي من أطباق الحلو الأساسية التي تقدم بعد الإفطار في شهر رمضان.

قمرالدين

مشروب يعود أصله إلى شام، ويعود سبب التسمية لحكاية تاريخية، إذ يقال إن أحد الخلفاء الأمويين كان يأمر بتوزيع مشروب المشمش فور ثبوت رؤية هلال رمضان. ولذلك، أطلق عليه اسم قمر الدين، وارتبط بشهر رمضَان والهلال الدال عليه. وقمر الدين هو جزء من التراث السوري، إذ كانت النساء تقوم بتصنعيه يدوياً.